المحاضرة الثانية

أيها السادة

بينا فى المحاضرة السالفة : أن ابن أبى ربيعة لم يكن صادق الحب ، ولا متين الصبابة .وأنه كان هتا كا للحرائر ، فتا كا بالأوانس . ساعده على ذلك شبابه الرائع ، وجماله الفاتن ، وثروة طائلة : كان من شأنها أن يتسع وقته لمداعبة الغيد ، وملاعبة الحور .

وما كان بنا أن نطيل القول فى ذلك ، لولا ما نعرفه ونؤمن به من أنه لا يصح الحكم على شعر شاعر ، أو نثر ناثر ، إلا بعد الوقوف على دقات قلبه ، وخطرات فؤاده . وقد علمنا مما سلف مبلغ ابن أبى ربيعة من الحب ، ونصيبه من الصبابة ، ولم يبق إلا أن نذكر مايجب أن يكون لشعره من ميزة ، ولأسلوبه من طابع ، وفقاً لحالته النفسية ، وميوله الشخصية ، وأن نبين أثر تلونه فى حبه ، وتلاعبه فى عشقه ، وكيف كان ذلك داعياً إلى أن يكون لشعره صفة تميزه عن غيره ، وتفضله عما عداه .

غير أنى لم أشأ أن أكشف الغطاء عن ذلك ، وأميط اللثام

عنه ، إلا بعد أن أبين لكم كيف فهمه الناس من قبلنا وكيف كان حكمهم على شعره وتقديرهم لأدبه ، فانى إذا فعلت ذلك فبينت بُعدهم من الصواب ، وانحرافهم عن الجادة ، كنت جديراً بأن أقول : انى عملت عملا جديداً ، وأحدثت أثراً جميلا ، وابتدعت بدعة حسنة ، وسلكت فى فهم ابن أبى ربيعة سبيلا لم يسلكه الناس من قبل . نعم وكنت جديراً بأن أخطِّىء من يقول : لا جديد تحت الشمس . وأن أكون نصيراً للداعين إلى الجديد تتميما للقديم

أعمل ذلك وأسعى إليه ، وأنا أحترم أدب الأسلاف وفكرهم ، مع اعتقادى أن كل شىء فى الكون قابل للتهذيب ، مفتقر إلى التكميل وأن السبعين صحيفة التى كتبها صاحب الأغانى عن ابن أبى ربيعة لم تكن لتفهمنا حقيقته ، وتعرفنا شخصه . إذ كانت موضوعة على غير نظام مبنية على غير أساس ، وأن بنوّتنا لأسلافنا وتبعيتنا لهم لايحولان بيننا وبين تكميل مالم يكمِّلوه ، وتهذيب مالم يهذِّبوه ، فان للولد — وان يكن سِرَّ أبيه — قلباً يفقه به ، وعيناً يبصر بها ، غير قلب أبيه وعينه ، وليس للوالد مهما عظم أمره ، وجلَّ قدره ، أن يضطر ابنه إلى الحكم على الأشياء كما يحكم هو عليها . كما لاينبغى

للولد مهما أخلص فى بنوته ، وصدق فى بره ، أن يعقّ الطبيعة فيما أهدته من نظر ومنحته من تدبير

* * *

أيها السادة :

علمت أن ابن عباس سمع شعر ابن أبى ربيعة واستحسنه ، وأن قائلاً قال له : اللهَ اللهَ يابن عباس فانّا نضرب اليك أكباد الإبل من أقاصى البلاد نسألك عن الدين فتعرض ؛ ويأتيك غُلامٌ من قريش فيُنشدك سفها فتسمعه ؟ فقال تالله ما سمعت سفها ! فعلمت من ذلك أن ابن أبى ربيعة شاعرٌ مُستجاد الشعر ، غير أن الشعراء كثير : فمن هو من بينهم ؟ وما سبيله التى سلكها ؟ وما هو الابداع الذى عرف به ؟

وبلغنى أن الفرزدق سمع شيئاً من تشبيب ابن أبى ربيعة فقال : هذا الذى كانت الشعراء تطلبه فاخطأته وبكت الديار ، ووقع هذا عليه. فلم أفهم من هذا شيئا ، ولم أدر ما الذى يدل عليه اسم الاشارة فى قوله : هذا الذى كانت الشعراء تطلبه فأخطأته ؟

وبلغنى أيضاً أنه كان بالكوفة رجل من الفقهاء يجتمع الناس اليه

فيتذاكرون العلم ، وأنه ذكر يوما شعر ابن أبي ربيعة فى مجلسه فهجنه فقالوا له : بمن ترضى حكما — ومرّ بهم حماد الراوية — فقال قد رضيت هذا . فقالوا لحماد : ما تقول فيمن يزعم أن عمر ابن أبي ربيعة لم يحسن شيئا ؟ فقال أين هذا ؟ اذهبوا بنا إليه . قالوا نصنع به ماذا ؟ فقال : نزو على أمه لعلّها تأتى بمن هو أمثل من عمر ! ! فعلمت أن ابن أبي ربيعة شاعر اختلف الناس فى تقديره ، وأن بعض أعدائه اعتمدوا فى النيل منه على الفحش والسباب

وسمعت أيضاً أن العرب كانت تُقرّ لقريش بالتقدم عليها فى كل شيء إلا الشعر : فانها كانت لا تقرّ لها به ، حتى كان عمر ابن أبي ربيعة ، فأقرت لها الشعراء بالشعر أيضاً ولم تنازعها شيئا ، فلم أفهم من هذا أيضا إلا أنه شاعر مجيد ، رفع من شأن قومه ، وأكمل مجد آبائه .

وربما سمعت من طريق آخر أنه محب ، فأقول ومن هو فى المحبين ، فان الحب درجات ؟ أو ناسبٌ متغزل ، فأقول : ومن هو فى المشببين فان للنسيب مذاهب ؟

*
* *

وكذلك ما زلت أسمع من أخبار ابن أبي ربيعة ، وأقرأ من وصف

الناس له ، ما يبعدنى عن فهمه ، والحكم على شعره ، حتى رأيت حديثا مسهبا لبعض العلماء المتقدمين فيما ابتكره ابن ابى ربيعة من نادر المعانى وابتدعه من جديد الاغراض ، حديث علمى ، أراد به كاتبه — عفا الله عنه — أن يعلم الناس كيف يعتسفون فى فهم الأدب ، ويضلون فى تقدير الشعراء : حديث طويل بيد أنه كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا : حديث خادع ، ظن صاحب الاغانى أنه يكرم الأدب بذكره ، ويمتع الأدباء بنقله ، فلم يغفل منه كلمة ، ولم يغادر منه حرفاً .

وقد رأيت أن أنقل لكم ذلك الحديث وأناقشه ، حتى تعلموا أى ضرر يعود على قارئ تلك الكتب ، إن لم يكن من أهل الحكم ، وممن يميز الخبيث من الطيب ، وحتى تعرفوا خطأ أولئك الذين يدرسون الأدب فى بيوتهم ، وبعد الفراغ من أعمالهم ، ظناً منهم أنه علم كمالى بسيط ، يكفى فى فهمه ودركه أن يكون للمرء مكتبة يرجع اليها ويروض الفكر فيها ، ثم يبيحون لأنفسهم بعد ذلك أن يؤلفوا فى الأدب ، وأن ينقدوا الكتاب والشعراء !!

نعم وحتى يعلم الناس جميعاً أن لاحياة للأدب ، ولا بقاء للغة ، إن لم ننظر فى حياة غيرنا الأدبية ، فنعرف الفرق بين أدبنا وأدبهم ، وكيف

نبهوا بعد خمولهم ، ونشطوا بعد فتورهم . وما هى السبل التى أوصلتهم إلى ما وصلوا إليه ، حتى نصل نحن كذلك ، فانا لانريد أن نفخر بأجدادنا ونحن دونهم ، ولا أن نعيش فى ظلهم كما عاش آباؤنا في ظلهم ، بل نريد أن تكون لنا ثروة أدبية ، وتراث فكرى ، وأن نحيا فى أنفسنا ، وبأنفسنا ، حياة طيبة خالدة . يتغنى بها الأبناء والاحفاد .

نقل صاحب الأغاني — وهو يترجم ابن أبى ربيعة — عن الزبير ابن بكار عن عمه مصعب انه قال :

« راق عمر بن أبى ربيعة الناس وفاق نظراءه وبرعهم : بسهولة الشعر ، وشدة الأسر [1] . وحسن الوصف . ودقة المعنى وصواب المصدر ، والقصد للحاجة ، واستنطاق الربع ، وانطاق القلب ، وحسن العزاء ، ومخاطبة النساء ، وعفة المقال ، وقلة الانتقال ، وإثبات الحجة ، وترجيح الشك فى موضع اليقين . وطلاوة الاعتذار ، وفتح الغزل ، ونهج العلل ، وعطف المساءة على العذال ، وأحسن التفجع ، وبخل المنازل ، واختصر الخبر ، وصدق الصفاء . إن قدح أورى ، وإن اعتذر أبرا ، وإن تشكّى أشجى . وأقدم عن خبرة ، ولم يعتذر بغرة

---

(١) الاسر بسكون السين : الخلق ، قال تعالى « نحن خلقناهم وشددنا أسرهم » ويراد بشدة الاسر في وصف الشعر إحكام النسج ومتانة التركيب

وأسر النوم ، وغمّ الطير ، وأغذّ السير ، وحيّر ماء الشباب ، وسهّل وقوّل ، وقاس الهوى فأربى ، وعصى وأخلى ، وحالف بسمعه وطرفه وأبرم نعت الرسل . وحذّر ، وأعلن الحب وأسره ، وبطن به وأظهره . وألحّ وأسفّ ، وأنتج النوم ، وجنى الحديث وضرب ظهره لبطنه ، وأذل صعبه ، وقنع بالرجاء من الوفاء ، وأعلن قاتله ، واستبكى عاذله ، ونفض النوم ، وأغلق رهن مني وأهدر قتلاه . وكان بعد هذا كله فصيحاً »

فهل رأيتم أغمض من هذا الكلام ، وأقل وضوحاً منه ؟ وهل يحسن أن يجيب المرء بمثل هذا إذا سئل عن شعر ابن أبي ربيعة ؟

اللهم إنك تعلم أني لا أريد إلا الاصلاح ما استطعت ، وأني لقيت عنتاً في فهم هذا الحديث المبهم الغامض ، وأني أخشى أن يتورط فيه من يشق عليه فهمه ، ويصعب عليه دركه ، فان المؤلف نفسه قد شعر بغموضه ، وأحس بابهامه : فأطال في شرحه بالمثال

ولنفرض أن هذا كلامٌ واضحٌ بيّنٌ ، فمن ذا الذي يستطيع أن يحمّل ذاكرته ستا وأربعين صفة لشاعر واحد ؟ وما كانت تكون الطامة لو ألفينا هذا النحو من الفهم في تقدير كتّابنا وشعرائنا وحكمائنا ؟ أكانت تتسع اللغة لهذه الألقاب العديدة ، والمصطلحات

الكثيرة ؟ أم كان يتسع وقتنا لدراسة الفنون على هذا النحو فى اختلاف أنواعها ، وتباين أشكالها ؟! هيهات هيهات ! ولشد ما تورط الكاتب فى الخطأ ، وأمعن فى الضلال !

* * *

ولكن فلنترك تأنيبه جانبا ، ولنعد إلى النظر فى تلك الكلمة ، ولنفهمها فهما يخول لنا الحكم عليها ، حكما صارما لا يرد

أليس معنى كلامه قبل كل شىء ان ابن أبى ربيعة انفرد بتلك الصفات كلها لم يشاركه فيها مشارك ، ولم يزاحمه عليها مزاحم ؟ وإلا فكيف بهر بها الناس ، وفاق من أجلها النظراء ؟ لابد أن يكون غرضه ذلك وإلاّ كان خاطئاً فى حكمه ، واهما فى فهمه — نعم يجب أن لا يريد من تلك الصفات إلاّ أنها من خواص ابن أبى ربيعة فان ذلك هو موضوع الحديث ، وما سُلَّ من أجله القلم . وإذاً فلننظر أصدق أم كان من الكاذبين ؟

وإنى ألاحظ أولاً أيها السادة : أن ذلكم المؤلف لم يدرس شعر ابن أبى ربيعة دراسة تمكّنه من الحكم الصحيح وتجعله قادراً على وضع الكلم فى مواضعه ، وأن يكون الشاهد وَفقاً

لما يزعمه ، وطبقاً لما يدعيه : فقد رأيناه يمثل لدقة معناه وصوب مصدره بقوله :

عوجا نُحيِّ الطلل المُحْولا والربعَ من أسماء والمنزلا (١)
بجانب البوباة لم يعدهُ تقادم العهد بأن يؤهلا (٢)

وليس هذا بالكلام الرائع ذى المعنى الدقيق ، وإنما هو شعر كان من أمره فى التعقيد أن اختلف الناس فى فهمه وتأويله : فقال إسحق ابن ابراهيم: يعنى أنه لم يؤهل فيعدوه تقادم العهد . وهو فهم سقيم ، فان المنزل الذى لم يؤهل حتى لايخشى عليه تقادم العهد ، ليس أهلاً للتحية ، ولا لتذراف الدموع . وقال بعض المدنيين : يحيِّيه بأن يؤهل أى يدعو له بذلك ، وهو أنسب ، وكان أولى لو مثل الكاتب لدقة المعنى وصواب المصدر بقوله

أشارت بمدراها وقالت لأختها أهذا المغيرىُّ الذى كان يُذكر (٣)
لئن كان إياهُ لقد حال بعدنا عن العهد والانسان قد يتغيرُ

قال ابو الحارث جُمَّيز : امرأته طالق ان كانت أشارت اليه بمِدراها

(١) الطلل المحول والمحيل هو الذى أتت عليه الأحوال فطمست معالمه وأخفت رسومه
(٢) البوباة الفلاة واسم لصحراء بأرض تهامة (٣) المدرى والمدراة : حديدة يحك بها الرأس

الا لتفقأ بهـا عينه ، هلاّ أشارت اليـه بمقانق مُطرف بخردل ، أو سَنْبُوسَجَة (١) مغموسة في الخل ، أو لَوْزينجة (٢) شرقة بالدهن . فان ذلك انفع له ، واطيب لنفسه ، وادل على مودة صاحبته !

ونحن بالرغم من نقد هذا الاكول الشره . نرى ابن أبي ربيعة أبصر بمواقع الكلم : فانه هنا لا يتحدث عن فتوته وشبابه ، حتى يصف هدايا النساء له ، واقبالهن عليه . وانما يذكر مافات من حسنه الايام ، وهدّت من قواه الليالى . ألا ترونه يقول بعد ذلك :

فقالت نعم لاشكّ غيّر لونهُ ... سُرى الليل يُحيي نصّه والتهجرُ (٣)

رأَتْ رجلاً أما اذا الشمس عارضت ... فيضحى وأما بالعشي فيخصرُ

قليلاً على ظهر المطية ظلهُ ... سوى مانفى عنه الرداء المحبّرُ

أخا سفر جوّاب ارض تقاذفت ... به فلواتٌ فهو أشعث أغبرُ

وهذا ولا شك أدق معنًى وأصوب مصدراً مِمّا ذكره صاحبنا من قبل في بيان رأيه ، وتأييد مذهبه .

(١) السنبوسج : مايحشى بقطع اللحم والجوز ونحوه من الرقاق المعجون بالسمن أو الشيرج
(٢) اللوزينج : نوع من الحلواء يشبه القطائف يؤدم بالجوز (٣) نص السرى : اسراعه — والتهجر : السير في الهاجرة وهي شدة الحر

ثم مثل لصدقه الصفاء بقوله :

كل وصلٍ أمسى لديكَ لأنثى　　غيرها وصلها اليها أداءُ

كل أنثى وان دنت لوصالٍ　　أو نأتْ فهى للرّباب الفداء

وعندى ان هذا الشعر يدل على الكذب اكثر مما ينمُّ على الصدق، وما قيمة الصدق فى حبه ، والحب فى قلبه ، وهو يعرف غيرها ويصل سواها ؟ ولو انه نظر نظرة عميقة فى شعر ابن ابى ربيعة لاهتدى الى المثال الواضح والشاهد البين فى الدلالة على صدقه فى الحب ، وثباته في الغرام . واليكم احسنُ ما قال ابن أبى ربيعة فى هذا المعنى ، وقد وقف فى بعض المناسك فاقبل النساء جماعات جماعات كأسراب الحمائم ، وكنَّ بالحج عابثات ، وفى النسك لاعبات :

من اللاءِ لم يحججن يبغين حسبةً　　ولكن ليقتلن البرىء المغفلا

فأخذ الرجال يرشقونهن بالنظرات ، ويصلونهن بالأمانى : فيطيعون الهوى ويعصون الله ، ويجيبون داعىَ الحسن ويعقون داعى النسك . كل ذلك وابن أبى ربيعة عفيف الطرف والقلب ، لاخشيةً من الله ، أو إجلالاً للمنسك ، ولكن طاعةً للهوى ، ونزولاً عند حكم الصبابة ، احتفاظا بود من يهوى ، ورعياً لعهد من يحب . وفى ذلك يقول :

يقولون انى لستُ أصدُقُك الهوى　　وأنىَ لا أرعاكِ حين اغيبُ

obeikandi.com

فما بالُ طرفي عفَّ عما تساقطتْ ... لهُ أعينٌ من مَعشَرٍ وقلوبُ

عشيةَ لا يستنكف القوم ان يروا ... سفاه امرىء ممن يقال لبيبُ

ولا فتنةً من ناسكٍ أومضت لهُ ... بعين الصبا كسلى القيام لعوب[1]

تَروَّحَ يرجو أن تُحطَّ ذنوبهُ ... فآب وقد زيدتْ عليه ذنوبُ

وما النسك أسلانى ولكنَّ للهوى ... على العين منى والفؤاد رقيبُ[2]

ومثل لحسن عزائه بقوله

أألحقُّ إن دار الرباب تباعدتْ ... أو انبتَّ حبلٌ أن قلبك طائر ؟

أفق قد أفاق العاشقون وفارقوا الـ ... ـهوى واستمرت بالرجال المرائر[3]

زع النفس واستبق الحياء فانما ... تُباعِد أو تُدنى الرباب المقادر[4]

أَمِتْ حبها واجعل قديم وصالها ... وعِشْرتها كمثل من لا تعاشر

وهبها كشيء لم يكن أو كنازحٍ
به الدارُ أو من غيَّبته المقابر

---

(١) اومضت له : سارقته النظر (٢) يلاحظ القارىء رفع اسم « لكن » وقد ظن بعضهم أن هذا تحريف ، غير أنه يجب أن نقرر أن مثل هذه المخالفة لقواعد العربية تكثر في الشعر الذى سبق وضع القواعد والحرص على مراعاتها ، ولولا ضيق المقام لذكرنا شواهد ذلك من الشعر القديم ومن القرآن

(٣) استمرت بهم المرائر : قويت عزائمهم فأقلعوا عن غوايتهم

(٤) زع النفس : أزجرها عن الهوى

وكالناس عُلِّقت الرباب فلا تكن
أحاديث من يبدو ومن هو حاضر (١)

وليس فى هذا الشعر شيء من حسن العزاء ، إنما هو تناسٍ لمن يهوى ، وتغاضٍ عمَّن يحب ، فكيف يُحسب من الحسنات أو يعدُّ من المبتدعات ؟

ولعل خيراً منه فى معناه ، وأدل منه على الصبابة ، قول شبيب ابن البرصاء

ألم تر أن الحيَّ فرق بينهم نوًى يوم صحراء الغَميم لجوج (٢)
نوًى شطنتهم عن نوانا وهيجت لنا حَزَنًا ان الخطوب تَهيج (٣)
فلم تذرف العينان حتى تحمّلت مع الصبح أحفاضٌ لهم وحدوج (٤)
وحتى رأيت الحيَّ تُذرى عِراصهم
يمانيةٌ تذرى الرَّغام دروج (٥)

(١) من يبدو ومن هو حاضر : يريد من يقيم في البدو والحضر
(٢) الغميم كأمير واد بين الحرمين على مرحلتين من مكة (٣) شطنتهم : أبعدتهم والنوى الثانية هى القرب (٤) الاحفاض جمع حفض بالتحريك وهو متاع البيت إذا هيء للحمل والبعير الذى يحمله — والحدوج جمع حدج بالكسر وهو الحمل ومركب للنساء كالمحفة (٥) العراص جمع عرصة بفتح العين وهى البقعة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء — والرغام : تراب لين أو رمل مختلط بتراب

فأصبح مسروراً ببينك معجباً ... وباكٍ له عند الديار نشيج[1]

فان تك هند جنة حيل دونها ... فقد يعرف اليأس الفتى فيعيج[2]

* * *

وألاحظ أيضاً أيها السادة أنه كرر بعض الصفات : فانه قال : إن اعتذر أبرا ، وأنشد فى ذلك قوله :

فالتقينا فرحّبت حين سلـ ... ـت وكفت دمعا من العين ثارا

ثم قالت عند العتاب رأينا ... منك عنا تجلّداً وازورارا

قلت كلا لاهِ ابن عمك بل خفـ ... ـنا أموراً كنا بها أغمارا

فجعلنا الصدود لما خشينا ... قالة الناس للهوى أستارا

ثم قال : وطلاوة الاعتذار ، وأنشد فيها قوله

أرسلت إذ رأت بعادىَ ألاّ ... يقبلنْ بى محرّشاً إن أتاهُ

دون أن يسمع المقالة منا ... وليطغى فان عندى رضاه

لاتطع بى فدتك نفسى عدوا ... لحديثٍ على هواه افتراه

لا تطع بي من لو رآني وإيا ... ك أسيرَىْ ضرورة ما عناه

(١) النشيج : هوالغصص بالبكاء وترديده بالصدر في غير انتخاب

(٢) يعيج : يعود إلى رشده

ولا فرق بين هذين الشعرين إلا أنه فى أولهما يحدث عن نفسه وفى ثانيهما عن حبيبته .

وكذلك ألاحظ أن قوله (وقلة الانتقال ، واثبات الحجة ، إن قدح أورى ، وإن اعتذر أبرا . وإن تشكّى أشجى) كل هذه الصفات تؤدى إلى غرض واحد : هو استيفاء الموضوع ، واقناع المخاطب فانك تنظر إلى ما أنشده فى قلة الانتقال ، فلا تجد غير ما أنشده فى إثبات الحجة : فكلاهما فى محاورة اللائم ومراجعة العاذل

على أن إسباغَ الكلام ، وتتميم الموضوع ، يُعدّانِ من الميزات الأولية فى الشعر العربي ، فقد يتكلم الشاعر عن عدة أشياء فى قصيدة واحدة ، وهو مع ذلك يوفى كل موضوع حقه ، ويعطى كل وصف قسطه . وهذا سويد ابن أبي كاهل اليشكرى ، جعل قصيدته العينية صحيفة لتاريخه ، وشرحاً لأغراضه ، حتى ليحسب القارىء أَنْ ليس فى استطاعة شاعر غيره ، أن يبسط القول فى مسألة واحدة بسطه فيها ولا أن يبلغ غرضه من شىء ما بلغ منه . فلو أن شاعراً شاء أن يصف عدوّا حسَنَ الظاهر سيىء الباطن ، لما زاد على قوله

رُب من أَنضجتُ غيظا قلبهُ قد تمنّى لىَ شراً لم يُطَع
ويرانى كالشّجا فى حلقهِ عَسِراً مخرجه ما يُنتزع

مُزْبِدٌ يخطِرُ مالم يرَني — فاذا أسمعته صوتي انقمع (١)

قد كفاني الله ما في نفسه — ومتى ما يكف شيئا لا يَضِع

بئسما يجمعُ أن يغتابني — مَطْعمٌ وَخْمٌ وداءٌ يُدَّرع (٢)

لم يَضِرني غير أن يحسدني — فهو يَزْقو مثل ما يزقو الضُّوَع (٣)

مُسْتَسِرٌّ الشنء لو يفقدني — لبدا منه ذُبابٌ فنبَع (٤)

صاحب المِئرة لا يسأمها — يُوقد النار إذا الشرُّ سَطَع (٥)

ذرع الداء ولم يُدرك به — تِرةً فاتت ولا وَهْيًا رقع (٦)

وهذا من النعت الشامل ، والوصف السابغ ، وهو جزء من قصيدة كثرت أغراضها ، وتشعبت فنونها . ولو كان بي أيها السادة أن أشرح لكم طريقة العرب في الوصف وسبيلهم في البيان ، لكان لي مضطرب واسع ، وميدان فسيح ، ولكني أريد الآن أن أفهمكم فقط : أن ابن أبي ربيعة ليس أول شاعر بسط القول ، وهلهل الشعر . فليست أبياته التي يقول فيها

(١) مزبد يخطر : تشبيه بالفحل الهائج ، يقال : ازبد الفحل إذا هدر، وخطر بذنبه ضرب به يمينا وشمالا (٢) طعام وخم ووخيم: غير موافق — وادراع الداء كناية عن الابتلاء به (٣) يزقو : يصيح — والضوع كصرد وعنب ذكر البوم ، أوطائر أسود كالغراب (٤) الشنء : البغض — والذباب في هذا البيت الشر (٥) المئرة : هي العداوة والنميمة (٦) الترة : الثأر

obeikandl.com

خليليَّ بعضَ اللوم لا ترحلا به   رفيقكما حتى تقولا على علم (١)
خليليَّ من يَكْلَفْ بآخرَ كالذى   كلفت به يَدْمُلْ فؤاداً على سُقم (٢)
خليليَّ ما كانت تصاب مقاتلى   ولا غرّنى حتى وقعت على نُعم (٣)
خليلى حتى لُفَّ حبلى بخادع   مُوَقّى اذا يُرمَى صَيُودٍ إذا يَرمى (٤)
خليليَّ لو يُرقَى خليلٌ من الهوى   رُقيتُ بما يدنى النَّوار من العُصْم (٥)
خليلى ان باعدتُ لا نت وان أَلِنْ   تَباعدْ فلم أُنْبِلْ بحرب ولا سلم (٦)

ليست هذه الأبيات — وهى التى أنشدها ذلكم المؤلف فى إثبات الحجة — بشىء فى جانب ماقالته جليلة بنت مُرة ، وقد اعتدى أخوها جساس على زوجها كليب فقتله فمنعتها أخت كليب من الدخول فى مأتمه . فأخذت تبين لها بشائق القول ، وساحر البيان ، مصيبتها فى زوجها ، وهمها على أخيها ، وأنها أولى منها بالحزن ، وأجدر بالشجى . وذلك قولها

يا ابنة الأقوام ان لمتِ فلا   تعجلى باللوم حتى تسألى
فاذا انتِ تبيّنت التى   عندها اللوم فلُومى واعذلى

---

(١) لاترحلا رفيقكما باللوم : لاتؤذياه باسماعه اياه . (٢) يدمل فؤاده على السقم : يطويه عليه (٣) اشارة إلى أنه فتن بها لأول نظرة (٤) لف الحبل هنا كناية عن الوقوع في الشرك (٥) النوار : النافرة من الظباء — والعصم جمع اعصم وعصماء ، وهى التى في أذرعها بياض (٦) لم أنبل : لم أصب أو لم أحسن الرمى

obeikandl.com

إن تكن أخت امرئ لِيمَتْ على ... شفقٍ منها عليه فافعلى
فِعلُ جسّاسٍ على وجدى بهِ ... قاصمٌ ظهرى ومُدْنٍ أجلى
لو بعينٍ غير عينى انفقأت ... عينىَ اليمنى إذاً لم أحفلِ
جلّ عندى فعل جساس فيا ... حسرتى عما انجلت أو تنجلى
ياقتيلاً خرّب الدهر بهِ ... سقف بيتىّ جميعاً من علَ
هدم البيت الذى استحدثته ... وبدا فى هدم بيتى الاول
ورمانى قتله من كَثَبٍ ... رَمْيةَ المُصمى به المستأصلِ (١)
يانسائى دونكن اليوم قد ... خصّنى الدهر بأمرٍ مُعضلِ
خصّنى قتل كليب بلظى ... من ورائى ولظى مستقبلِ
ليس من يبكى ليوميه كمن ... إنما يبكى ليوم بَجَلِ (٢)
دَرَكُ الثائر شافيه وفى ... دَرَكِ الثائر قتلٌ مشكلى
انى قاتلةٌ مقتولةٌ ... ولعل الله أن يرتاح لى (٣)

وذلك نفسه هو القصد للحاجة : الذى جعلوه من مبتدعات ابن أبى ربيعة ممثّلين بقوله :

(١) كثب : من قرب — والمصمى هو من قولهم: أصمى الصيد إذا رماه فقتله — والمستأصل من قولهم: استأصل الله شأفتهم إذا قطع دابرهم (٢) بجل بمعنى فقط (٣) ارتاح له الله : أنقذه من البلية

obeikandl.com

أيها المنكح الثريا سُهيلاً عَمْرَكَ الله كيف يلتقيان
هي شاميّةٌ اذا مااستقلت وسهيلٌ اذا استقلَّ يمان

* * *

وألاحظ أيضاً أيها السادة ان أكثر تلك الصفات من الامور عامة : التى لا تحدّد معنًى ولا ترسم طريقة . فما الذي اراده بسهولة الشعر ، وشدة الأسر ؟ وما الذى قصده من حسن الوصف ؟ وما الذى عناه بفتح الغزل ؟ ولقد تأملت الأمثلة التى ذكرها لتلك الصفات فاذا هى أكثر منها غموضا : فقد مثل لحسن الوصف بقوله

لها من الريم عيناه ولفتتهُ وغرة السابق المختال إذ صهلا

فما وجه الحسن هنا ؟ ان كان فى احراز الصفات المختلفة للموصوفات المختلفة ، فليس بالشيء الجديد . فلقد قال امرؤ القيس فى وصف حِصانه

له أيطلا ظبي وساقا نعامةٍ وإرخاء سِرْحان وتقريب تَتْفُل (١)

وان كان لروعته وبهائه ، فما هو أيضاً بالمبتدع ، وخير منه قول الشّنفَرى :

---

(١) الايطل : الخاصرة ــ والسرحان: الذئب ــ والتتفل: ولد الثعلب

فدقت وجلت واسبكرَّتْ وأُكمِلَتْ

فلو جُنَّ إنسانٌ من حسن جُنَّتِ (١)

ومثل لفتح الغزل بقوله

اذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى

فكن حجراً من يابس الصخر جَلْمدا

وهو معنى مشهور ، لايصح أن يجعل دليلاً على نبوغ شاعر ، على أنه ينسب للاحوص . وكذلك رأينا فيما ذكره : من تسهيله وتقويله ، واختصاره الخبر ، ودقة معناه وصواب مصدره ، الى غير ذلك من الأوصاف العامة والنعوت التي لم تُحدّد . فلم يبق إلا أن ننظر فى الصفات التي يظن أنه ابتدع ما أفصحت عنه ، وابتكر مادلت عليه .

* * *

واني قبل ذلك ألفت نظركم الى أن تلك الصفات يرجع بعضها الى المعنى ، وبعضها الى اللفظ ، وشيءٌ منها الى الأسلوب . وأريد بالمعنى هنا الفكرة الاساسية ، التي يعد الشاعر مُبدعالها اذا سَبق بها ، كما يقولون.

(١) دقت وجلت : يريد أن جسمها دقيق في الموطن الذى تستملح فيه الدقة ، وجليل في الموضع الذى تستطاب فيه الضخامة — واسبكرت : طابت واعتدلت

أول من طرد الخيال طرفة بن العبد فى قوله

فقل لخيال الخنظلية ينقلبْ اليهافانى واصلٌ حبل من وصَلْ

وأريد باللفظ الكلمة المستعملة أول مرة فى التعبير عن معنى معروف ، كما يقولون : أول من قيد الأوابد امرؤ القيس فى قوله

وقد أغتدى والطير فى وكناتها بمنجردٍ قيد الاوابد هيكلِ (١)

يريدون أنه أول من عبر عن السرعة بهذا التعبير

فاما الاسلوب — وهو الطريقة المثلى فى الأداء — فاني لا أريد مناقشة المؤلف فيما يتعلق به ، فقد كان للعرب قبل ابن أبى ربيعة بأجيال أسلوب سامٍ بديع ، مازال الناس يقتفون فيه أثرهم ، ويترسَّمون خُطاهم. على أن أكثر مايتعلق بذلك من تلك الصفات منتقد مزيَّف . وقد أشرنا الى شىء منه فى الملاحظات السالفة ، فليتأمله الراغب فى الفهم ، والجانح للبيان .

فمن الصفات المعنوية عِفة المقال التى مثل لها بقوله

طال ليلى واعتادنى اليوم سُقْمُ وأصابت مقاتلَ القلب نُعْمُ

حُرَّةُ الوجه والشمائل والجو هر تكليمُها لمن نال غُنْمُ

---

(١) الوكنات جمع وكنة وهى عش الطائر — والمنجرد القصير الشعر — والاوابد: الوحوش — والهيكل: الفرس الطويل

وحديث بمثله تُنزلُ العُصْم رخيم يشوب ذلك حلم
هكذا وصفُ مابدالىَ منها ليس لى بالذى تغيّب عِلْمُ
إن تجودى أو تبخلى فبحمدٍ لستُ ياأنمُ فيهما من يذمُّ

وكان ذلك من خير مايوصف به الشعر فى الحب ، وتنمت به أحاديث الصبابة ، لولا اننا لانعده حسنة للشاعر ولا منقبة للمحب ، مالم يكن من خواصه ، ومما لايعدل عنه ، فكيف وابن أبى ربيعة متهتك فى شعره ، متطرف فى نسيبه ؟

على أن هذا الشعر وان دل على عفة المحب فانه لايدل على إغراب المحبوب فى الصيانة ، وإمعانه فى التمنع ، وخيرٌ منه قول الشنفرى فى ظبية تسكن الى أمها ، وتنفر من محبها

لقد اعجبتنى لاسقوطاً قناعها اذا ما مشت ولا بذات تلفتِ
تحلُّ بمنجاة من اللّوم بيتها اذا مابيوتٌ بالملامة حُلت
كأن لها فى الارض نِسياً تقصهُ على امها وان تكلمك تبلت (١)

وما زال العرب يفتخرون بالعفة ، ويتمدّحون بالصيانة ، فكيف يكون ابن أبى ربيعة مبتدعا للعفة فى المقال ، وقد عرفت من قبله فى الفعال ؟

---

(١) النسى بالكسر ويفتح مانسى وما تلقيه المرأة من خرق اعتلالها. وتبلت وتذبلت تنقطع . والمعنى انها تسكن إلى أمها فتطيل الكلام فاذا كلها رجل غلبها الحياء فسكتت

ومما إبتدعه أيضاً فى زعمهم عطف المساءة على المذال فى قوله

لا تامنى عتيق حسبى الذى بى　　إن بى ياعتيق ماقد كفانى

لا تامنى وأنت زينتها لى　　أنت مثلُ الشيطان للانسان

وهو خطأٌ فى الفهم ، فان هذا معنى أوجدته حادثة خاصة ، وليس كل عاذل بقواد ، حتى يكون المعنى شاملاً لكل لائم وعاذراً لكل ملوم ، وقد وُجد فى كتاب الله من قبل ، فلا سبيل لعده من المبتكرات ، ولا لجعل صاحبه من المبدعين

* * *

ثم قال : ومن إقدامه عن خبرة ولم يعتذر بغرة قوله

صرمت وواصلت حتى عرفـــتُ أين المصادر والموردُ

وجرَّبت من ذاك حتى عرفـــت ما أتوقى وما أعمد

على أن وصل الغانيات ، والحظوة لديهن ، قد لا يحتاج إلى قسط أوفر من الدهاء ، ونصيب أكبر من السياسة ، حتى يفخر الشاعر بالفوز فيه والظفر به ، إنما يكبر المرء فى عين النساء بفحولته ، وبشبابه النضير ، وغصنه الرطيب ، وما منحته الطبيعة من ديباجة مشرقة ومحيا

وسيم . فأما اللوام والعذال والوشاة ، فهم أهون الناس عليه ، وأصغرهم لديه، إن نال من حِبه الكرامة ، وحل فى قلبه الشفيق

ولعل البها زهير قلّده فى هـذا المعنى : إذ جعل القواد المخنثين أشباها لسفراء الدول حين يقول :

فيا رسولى إلى من لا أبوح بهِ إن المهمات فيها يُعرف الرجلُ

والمعنى أصله للنابغة فى مدح بنى غسان ، وقد وضعه فى موضعه وأقره فى نصابه ، وذلك قوله (١)

ولا يحسبون الخير لاشر بعدهُ ولا يحسبون الشّرّ ضربة لازبِ

إذ كانوا لاينفلون عن حراسة الخير ، ولا يَفتُرون فى مدافعة الشر

ثم قال : ومن تحذيره قوله

لقـد أرسلت جاريتى وقلت لها خذى حذركْ
وقولى فى ملاطفةٍ لزينب نَوّلى عمرك
فان داويت ذا سَقَمٍ فأخزى الله من كَفَرَكْ
فهزّت رأسها عجباً وقالت من بذا أمرك
أَهـذا سحرك النسوا ن قد خبّرنى خبرك

(١) الضمير عائد على النابغة

وقلن إذا قضى وطراً وأدرك حاجة هجرك

ولست أرى فى هذا الشعر ما ينبئ عن ابتداع ، أو يدل على اختراع ، فان تحذير الرسول من الامور الفطرية التى تخطر ببال أحدث الناس عهداً بالحب ، وأقلهم علماً بما يجنى الوشاة

على أن ذلك قد يكون من عيوب تلك القوّادة التى كان ينبغى أن لاتحتاج إلى تحذير ، فما يصح أن تكون جارية ابن أبى ربيعة غِرة بلهاء ، يدرك الناس ما تسعى له ، فيعرفون من تمشى اليه ، أو تخطىء فهم ما أرسلت به ، فتخفق فيما سعت له

فأين كانت ، لاعفا الله عنها ، تلك العجوز الشمطاء ، والداهية الشعواء ، التى كان يرسلها ابن أبى ربيعة إلى الظباء النوافر ، والحسان الغرائر ، فتسمعهنّ من حلو الحديث ومُرّه ، وصعب الكلام وسهله ، ما يجعلهن إلى الفسق أميل ، ومن الفحش أقرب : فيصبحن خليعات فاجرات ، بعد أن كنّ عفيفات طاهرات ؟ !

أين كانت — لا كانت — تلك التى يقول فيها

وأتتها طبّةٌ عالمةٌ تمزج الجِدَّ مراراً باللعب[1]

(١) طبة : حاذقة رفيقة

تُغلظ . القول إذا لانت لها

وتُراخى عند سَوْرات الغضب

لم تزل تصرفها عن رأيها وتأنّاها برفق وأدب [1]

تلك التى ودّ الناس لو أتاحت لهم الأقدار خليفةً فى عقلها ، أو أميراً فى رأيها ، والتى طلب الوليد من حمّاد أن يسعفه بمثلها ، ويدركه بشبهها ، حتى تعطف سلمى عليه ، وتردّها اليه

ذلك ما أجاد ابن أبى ربيعة فى وصف الرسل . فأما (التحذير) الذى عناه المؤلف : فهو ضرب من الخطأ ، أو نوع من الفضول

* * *

ثم قال : ومن قناعته بالرجاء من الوفاء قوله

فعِدى نائلاً وإن لم تُنيلى انهُ ينفع المحبَّ الرجاء

وقد علمت مما أسلفناه أن ابن أبى ربيعة لم يكن ممن يرضى فى حبه باليسير من الوصل ، والقليل من القرب ، حتى تعدّ من ميزاته القناعة ، ومن خصائصه العفاف

وأين هذا البيت فى حسنه من قول جميل :

(١) تأنّاها بحذف إحدى تاءيه : تتمهل عليها

وإنى لَراضٍ من بثينةَ بالذى لو اُبصره الواشى لقرَّت بلابلُهْ
بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجوّ قد خاب آمله
وبالنظرة العَجلْى وبالحول تنقضى
أواخرُهُ لا نلتقى وأَوائله

ولا تحسبوا أيها السادة أن هناك فرقاً بين الشعرين فى المعنى حتى تستبعدوا المقارنة . فان المؤلف — فيما أظن — لم يشأ إلا التنويه بقناعة الشاعر ، والتغنى بعفافه ، بدليل قوله بعد ذلك : هذا أحسن من قول كثيِّر :

ولست براضٍ من خليل بنائلٍ قليل ولا أرضى له بقليل

وقد شاء أن يخطىء فى الآخرة والأولى : فان ابن أبى ربيعة يتكلم عن محبوبه ، وكثيِّر يتكلم عن خليله ، وقد يرضي المرء بظلم حبيبه ولا يرضى بجور صديقه ، فقد يصدف الحبيب دلالا ، ويعرض الصديق ملالا ، والصبُّ عن حِبه صَفُوح ، وربما نُوقِش الصديق

فأما ما أسدل ابنُ أبى ربيعة من الحُلَل الجديدة الفاخرة ، على المعاني القديمة الباهرة ، وما تندَّر به من التراكيب الطريفة المخترعة ، والتعابير الحديثة المبتدعة ، فانا نرحم الأدب من أن يُعجب بها كاتب فيزيِّن بها نثره ، أو يخدع بها شاعر فيجمِّل بها شعره ، إذ كانت

obeikandi.com

فى جملتها من الاستعارات الفاسدة ، والمجازات المردودة ، مما ينبو عنه الطبع ، ويمجه الذوق السليم . فما حسن انكاح النوم فى قوله :

حتى إذا ما الليلُ جنَّ ظلامهُ ونظرت غفلة كاشح أن يعقلا
واستنكح النومُ الذين نخافهم وسقى الكرى بوّابهم فاستثقلا
خرجت تأطّر فى الثياب كأنها أيمٌ يسيب على كثيب أهيلا (١)

« وعلى أى وجه تجرى هذه الاستعارة . ومن أى سبيل يجوز هذا المجاز ؛ إنْ هذا إلاّ اختلاق »

ولست أدرى لِمَ لَمْ يفتن الكاتب أيضا بما أبدع ابن أبى ربيعة : من تشبيه الحسناء وهى تتثنّى ، بالحية وهى تتلوى ، فهو أيضاً تعبير مخترع ، وتشبيه مبتدع ، لايقل عن إنكاح النوم فى السماجة ، ولا ينقص فى الفضول ؟

وانهم ليعجبون أيضاً بقوله :

فى خلاءٍ من الأنيس وأمنٍ فشفينا غليلنا واشتفينا
وضربنا الحديث ظهراً لبطن وأتينا من أمرنا ما اشتهينا
فمكثنا بذاك عَشْر ليالٍ فقضينا ديوننا واقتضينا

(١) تأطر أصله تتأطر حذفت احدى تاءيه ، والتأطر : التثنى — والايم : الافعى . ويسيب : يمشى — والكثيب الاهيل : الرمل المنهال

وذلك أنهم يزعمون أنه أول من ضرب الحديث ظهراً لبطن من غير أن يبينوا ما يُراد بذلك البِدْع الجديد !

ويستجيدون أيضاً قوله

حبكم يا آل ليلى قاتلى ظهر الحبُّ بجسمى وبطنْ
ليس حبٌّ فوق ما أحببتكم غيرَ أن أقتل نفسى أو أُجنْ

وهو من الخطأ فى التعبير ، فان الحب حين تبدو علائمه من الأرق والسهاد ، والنحول والذبول ، لا يقال عنه بطن وظهر ، إنما يقال : ظهر منه ما كان خفياً ، وبدا ما كان مستوراً . وقد يستبعدون أن يكون الأسى الظاهر ، تمثالا للجوى الباطن ، كأن ما يبدو بالجسم من شُحوب وبالوجه من لُغوب ، إنما هو شَرَرٌ تطاير من لهيب القلب ، وسعير الفؤاد

وإن تعجب فعجبٌ قوله

ليس حب فوق ما أحببتكم غير أن أقتل نفسى أو أُجن

كأن لم يقتل الحب من أحد ، ولم يُصرع به إنسان ! !

* * *

وإنى أيها السادة — على ما أغربت فى نقد ذلكم المؤلف — أرى من الانصاف أن أعزز رأيه فى كلمة اختارها فى طلاوة الاعتذار ، وأخرى فى تحبير ماء الشباب ، وثالثة فى صدق الصفاء

فأما الأولى فهى قوله

عاود القلبَ بعضُ ما قد شجاهُ ... من حبيب أمسى هوانا هواهُ
أرسلت إذ رأت بعادىَ ألاّ ... يقبلنْ بى محرّشا إن أتاه [1]
دون أن يسمع المقالة منا ... وليُطعنى فان عندى رضاه
لا تطع بى فدتك نفسى عدواً ... لحديثٍ على هواه افتراه
لاتطع بى من لو رآنى وإيا ... ك أسيرَىْ ضرورة ما عناه
ما ضرارى نفسى بهجران من ليـ ... ـس مسيئاً ولا بعيداً ثراه [2]
واجتنابى بيت الحبيب وما الخـ ... ـلد بأشهى إلىّ من أن أراه

والحق أقول : إن إعجابى بهذه الأبيات ، ليس لما فيها من طلاوة الاعتذار — كما ذكر ذلك المؤلف — بل لما فيها من الجرأة فى الخروج على الوشاة . ومن ذا الذى يقرأ قوله

لاتطع بى من لو رآنى وإيا ... ك أسيرى ضرورة ما عناه

ثم لا يعطى العدو أذناً غير واعية ، وفؤاداً غير أوّاب ؟

أم من ذا الذى يسمع قوله

ما ضرارى نفسى بهجران من ليـ ... ـس مسيئاً ولا بعيداً ثراه
واجتنابى بيت الحبيب وما الخـ ... ـلد بأشهى إلىّ من أن أراه

(١) المحرش : المفسد (٢) الثرى : الخير

ثم لا يطير إلى حبيبه ، لينعم بجماله ، ويظفر بوصاله ؟

وأما الكلمة الثانية فهى قوله

أبرزوها مثل المهاة تهادَى ... بين خمس كواعب أتراب

وهى مكنونة تحيَّر منها ... فى أديم الخدين ماء الشباب

ثم قالوا تحبها ؟ قلت بهرا ... عدد الرمل والحصا والتراب

ووجه الحسن فى تحيير ماء الشباب ، أنك تنظر إلى الخدود المورَّدة فتراها كالشَّفَق تتنقّل من تحته الشمس ، أو كالمشكاة يتموَّج فى قلبها المصباح .

فى سبيل الحب تلك النظرة ! يوم رأيته وقد أبلَّ من حُمّى أَضْرَعَتْه ، فرأيت ماء الشباب يدب في تلك الخدود وهى صفراء كالورس ، فيعيدها حمراء كالورد ، وإذا بالأُنس يتمشى فى فؤادى لشفائه ، تمشّى البرء فى أعضائه [1]

وأما الثالثة فهى قوله

أحبك لحبك من لم يكن ... صفيًّا لنفسى ولا صاحبا

وأبذل مالى لمرضاتكم ... وأُعتِب من جاءكم عاتبا

وأرغب عن ودِّ من لم أكن ... إلى وده قبلكم راغبا

(١) تتصل هذه الفقرة إلى هذا الحديث بسبب ضعيف ، وذكرها هنا ضلال مبين

ولو سلك الناس فى جانب من الأرض واعتزلت جانبا
ليممتُ طيتها إننى أرى قربها العجب العاجبا[1]

*
* *

وجملة القول : أن ما نسب إلى ابن أبى ربيعة من المعانى المبتكرة والألفاظ المبتدعة ، على ما فيه من وهَنَ ، وما به من دَخَل ، لا يُفصح عن منهج فى الشعر غير مألوف ، أو سبيل غير معروف

فما طريقه الجديد ، أو منهجه الحديث ؟

(١) يممت طيتها : قصدت ناحيتها

obeikandl.com